

Humanities and Educational
Sciences Journal

ISSN: 2617-5908 (print)



مجلة العلوم التربوية
والدراسات الإنسانية

ISSN: 2709-0302 (online)

الهوى في السنة النبوية دراسة حديثة موضوعية(*)

خيرية بنت علي بن سعيد القحطاني
أستاذ مساعد بقسم السنة وعلومها
كلية الشريعة وأصول الدين بجامعة الملك خالد
Kerih@kku.edu.sa

تاريخ قبوله للنشر 24/1/2026

<http://hesj.org/ojs/index.php/hesj/index>

(*) تاريخ تسليم البحث 14/12/2025

(*) موقع المجلة:

الهوى في السنة النبوية دراسة حديثة موضوعية

خيرية بنت علي بن سعيد القحطاني

أستاذ مساعد بقسم السنة وعلومها

كلية الشريعة وأصول الدين بجامعة الملك خالد

الملخص

يتناول هذا البحث الموسوم بـ «الهوى في السنة النبوية: مفهومه ومظاهره والمنهج النبوي في معالجته» دراسةً حديثة موضوعية لظاهرة اتباع الهوى في الخطاب النبوي، بوصفها من أخطر أسباب الانحراف العقدي والسلوكي وآثاره الفردية والاجتماعية، ويهدف إلى بيان مفهوم الهوى واستعمالاته في السنة، والتمييز بين الهوى المذموم والميل الفطري المشروع، مع إبراز المنهج النبوي المتكامل في معالجته القائم على تقديم الوحي، وبناء التقوى، وتربية النفس على المجاهدة، وقد اعتمد البحث المنهج الاستقرائي التحليلي، مع الاستفادة من المنهج الاستنباطي في استخراج القواعد التربوية والمنهجية، وجاء في مقدمة ومبحثين وخاتمة؛ خُصّص الأول لبيان المفهوم والمظاهر والآثار، والثاني لعرض المنهج النبوي في معالجة الهوى، وخلص البحث إلى أن الهوى المذموم هو ما عارض الوحي أو قُدِّم عليه، وأن اتباعه أصل لكثير من الانحرافات، وأن السنة النبوية قدّمت علاجاً متكاملًا يجمع بين التصحيح العقدي والتهذيب السلوكي والتربية الإيمانية، مع التوصية بتفعيل هذا المنهج في الخطاب الدعوي والتربوي المعاصر.

الكلمات المفتاحية: الهوى، السنة النبوية، دراسة، حديثة، موضوعية.

Al-Hawā (Personal Inclinations) in the Prophetic Sunnah: A Thematic Hadith Study

Khairiyah bint Ali bin Saeed Al-Qahtani

Assistant Professor - Department of Sunnah and Sciences

College of Sharia and Fundamentals of Religion

King Khalid University

Abstract

This study, entitled “Al-Hawā (Personal Inclinations) in the Prophetic Sunnah: Its Concept, Manifestations, and the Prophetic Method of Addressing It,” presents a thematic hadith-based examination of the phenomenon of following personal inclinations in the Prophetic discourse, considering it one of the most dangerous causes of creedal and behavioral deviation and its individual and social effects. The study aims to clarify the concept of hawā and its usages in the Sunnah, to distinguish between blameworthy hawā and legitimate innate inclination, and to highlight the comprehensive Prophetic methodology in addressing it, which is based on giving precedence to revelation, cultivating piety, and training the soul in self-discipline and striving. The research adopts an inductive and analytical methodology, while also benefiting from the inferential approach in deriving educational and methodological principles. The study is structured into an introduction, two main sections, and a conclusion. The first section is devoted to explaining the concept, manifestations, and effects of hawā, while the second presents the Prophetic methodology for addressing personal inclinations. The study concludes that blameworthy hawā is that which contradicts revelation or is given precedence over it, that following it constitutes a fundamental cause of many deviations, and that the Prophetic Sunnah offers an integrated treatment that combines creedal correction, behavioral refinement, and faith-based education. The study recommends activating this Prophetic methodology within contemporary religious and educational discourse.

Keywords: Al-Hawā (Personal Inclinations), Prophetic Sunnah, Study, Hadith-Based, Thematic.

مقدمة البحث:

الحمد لله الذي أكمل لعباده دينهم، وأنزل عليهم كتابه هدىً ونوراً، وجعل في سنة نبيه صلى الله عليه وسلم الميزان العادل بين الحق والباطل، والرادع عن اتباع الأهواء، أحمدته سبحانه وأشكره على نعمة الإسلام والهداية، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تُزَكِّي النفوس وتقيها مزالق الهوى والضلال، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، المبعوث بالهدى ودين الحق، والداعي إلى تزكية القلوب وتقويم السلوك، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، ومن سار على نهجه واستنَّ بسنته إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن السنة النبوية تمثل مصدراً أصيلاً في تهذيب النفس الإنسانية وضبط ميولها وشهواتها، إذ لم تكتفِ ببيان الأحكام الشرعية، بل عاجلت أمراض القلوب التي تُفضي إلى الانحراف عن منهج الحق، وفي مقدمتها اتباع الهوى، وقد أولت النصوص النبوية هذا المفهوم عناية بالغة، فحدّرت من آثاره المدمرة على الفهم الديني والسلوك العملي، وربطت بينه وبين الضلال والفرقة والانحراف عن الصراط المستقيم.

وفي ظل ما يشهده الواقع المعاصر من تغليب للأهواء الفردية وتقديم الرغبات على مقتضيات الشرع، تبرز الحاجة إلى دراسة حديثة موضوعية تُعيد قراءة الأحاديث النبوية المتعلقة بالهوى قراءة علمية تحليلية، تكشف عن أبعاده المفاهيمية، وأسبابه، ومظاهره، وآثاره، وتبرز المنهج النبوي المتكامل في معالجته، بما يسهم في ترسيخ الفهم الصحيح للدين، وحماية الفرد والمجتمع من آثار الانحراف السلوكي والفكري.

أهمية البحث وأسباب اختياره:

تنبع أهمية هذا البحث من تناوله الهوى بوصفه من أخطر أسباب الانحراف العقدي والسلوكي، وما يترتب عليه من خلل في الفهم الديني والسلوك الفردي والجماعي، مع اعتماده الدراسة الحديثة الموضوعية في استقراء النصوص النبوية وبيان معالجاتها التربوية والمنهجية، كما تأتي أهميته استجابةً لحاجة علمية معاصرة لإبراز التصور النبوي المتكامل للهوى، وسدّ فجوة في الدراسات الحديثة، لما لذلك من أثر في تقويم السلوك وترشيد الخطاب الديني.

مشكلة البحث:

تتمثل مشكلة البحث في غياب دراسة حديثة موضوعية محكمة تعالج مفهوم الهوى في السنة النبوية من حيث ضبطه المفهومي، وبيان أسبابه ومظاهره وآثاره، في إطار منهجي متوازن غير موسوعي، كما تكمن الإشكالية في تداخل مفهوم الهوى مع مصطلحات قريبة في الخطاب النبوي، مما قد يؤدي إلى خلط دلالي يؤثر في الفهم الصحيح للنصوص، ويضاف إلى ذلك ضعف الربط بين التوجيهات النبوية في هذا الباب والواقع المعاصر، ومن هنا جاء هذا البحث للإسهام في معالجة هذه الإشكالات ضمن إطار علمي محدد.

أسئلة البحث:

١ - ما المقصود بالهوى في السنة النبوية، وما أبرز دلالاته الحديثة؟

٢- ما الأسباب التي تؤدي إلى اتباع الهوى كما وردت في النصوص النبوية؟

٣- ما مظاهر الهوى وآثاره على السلوك الديني والاجتماعي في ضوء السنة؟

٤- ما المنهج النبوي في علاج الهوى والوقاية من آثاره؟

أهداف البحث:

١- بيان مفهوم الهوى في السنة النبوية وضبط دلالاته في ضوء النصوص الحديثة.

٢- الكشف عن أسباب الهوى ومظاهره كما صورتها السنة النبوية.

٣- إبراز الآثار العقدية والسلوكية لاتباع الهوى على الفرد والمجتمع.

٤- توضيح المنهج النبوي في التحذير من الهوى ومعالجته معالجة تربوية منهجية.

منهج البحث:

يعتمد البحث على المنهج الاستقرائي التحليلي، من خلال جمع الأحاديث النبوية الصحيحة والحسنة الدالة على الهوى، ثم تحليلها تحليلًا موضوعيًا يبرز دلالاتها ومقاصدها التربوية دون توسع في الخلافات الجانبية.

إجراءات البحث:

يقوم البحث على استقراء النصوص الحديثة الواردة في كتب السنة المعتمدة مما له صلة مباشرة بموضوع الهوى، ثم توثيق هذه الأحاديث توثيقًا علميًا إجمالياً، ويُصار بعد ذلك إلى تصنيف الأحاديث وفق محاور البحث: المفهوم، والأسباب، والمظاهر، والآثار، مع تحليل المتن في ضوء شروح الحديث المعتمدة، واستخلاص النتائج ذات الصلة بالواقع المعاصر في إطار منهجي منضبط.

حدود البحث:

يقتصر البحث موضوعيًا على دراسة الهوى في السنة النبوية من حيث المفهوم والأسباب والمظاهر والآثار، دون التوسع في الدراسات اللغوية أو الفلسفية أو الكلامية، كما يلتزم البحث منهجيًا بعدم الاستقصاء الشامل لجميع الأحاديث، والاكتفاء بالنماذج الحديثة الدالة دلالة واضحة على موضوع البحث.

الدراسات السابقة:

عند مراجعة ما نُشر في قواعد البيانات العلمية المحكمة وغيرها من المصادر الأكاديمية حول موضوع الهوى في النصوص الشرعية، لم يجد الباحث دراسة منشورة في مجلة علمية محكمة تتناول "الهوى في السنة النبوية" دراسة حديثة موضوعية متكاملة من حيث المفهوم والأسباب والمظاهر والآثار، ما وجده الباحث من مواد أقرب إلى الموضوع هي مواد تفسيرية وشرعية عامة مثل "اتباع الهوى يصدّ عن الحق" المنشورة في موقع IslamWeb، ومواد تفسيرية عن الهوى والضلال في IslamOnline، ودراسات تربوية تربط العواطف بالهوى، ودراسات تفسيرية تربط الهوى بمظاهر الضلال في النصوص، ومع أن هذه الدراسات تحمل صلة محدودة بمفهوم الهوى، إلا أنها لا تقدم

معالجة حديثة موضوعية للنصوص النبوية الخاصة بالهوى بالمنهج العلمي المطلوب، مما يبرز الفجوة البحثية التي يسعى هذا البحث إلى معالجتها.

خطة البحث: يشتمل البحث على مقدمة، وتمهيد، ومطلبين، وخاتمة.

المقدمة: تشتمل على: أهمية البحث وأسباب اختياره، مشكلته، وأهدافه، وأسئلته، ومنهجه، وحدوده، والدراسات السابقة، وخطة البحث.

التمهيد: الإطار المفاهيمي والمنهجي للهوى في السنة النبوية، وفيه:

أولاً: مفهوم الهوى في السنة النبوية ودلالاته.

ثانياً: استعمالات لفظ الهوى ومعانيه السياقية.

ثالثاً: الفرق بين الهوى المذموم وميل الفطرة المشروع في ضوء السنة.

المبحث الأول: أسباب اتباع الهوى ومظاهره في ضوء السنة النبوية، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: أسباب اتباع الهوى في السنة النبوية.

المطلب الثاني: مظاهر اتباع الهوى في الاعتقاد والسلوك وآثارها.

المبحث الثاني: آثار الهوى والمنهج النبوي في معالجته، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: آثار اتباع الهوى على الفرد والمجتمع.

المطلب الثاني: المنهج النبوي في معالجة الهوى.

الخاتمة وفيها أهم النتائج والتوصيات.

المصادر والمراجع.

التمهيد: الإطار المفاهيمي والمنهجي للهوى في السنة النبوية

يُعدّ مفهوم الهوى من المفاهيم المحورية في الخطاب النبوي المتعلق بتزكية النفوس وتكوين السلوك، إذ يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمصدر الانحراف في الفهم والعمل، ويؤثر في سلامة الاعتقاد واستقامة المنهج، وقد عنيت السنة النبوية ببيان هذا المفهوم عناية ظاهرة، فلم تقتصر على التحذير المجمل منه، بل تناولته في سياقات متعددة، تكشف عن حقيقته، وتبرز آثاره، وتؤسس لمنهج وقائي وعلاجي متكامل.

أولاً: مفهوم الهوى في السنة النبوية ودلالاته

لم يرد في السنة النبوية تعريف اصطلاحي جامع للهوى، غير أن دلالاته تتحدد من خلال الاستعمال النبوي والقرائن المصاحبة له، وقد ورد ذكر الهوى في النصوص النبوية غالباً في سياق الذم والتحذير، وبيان أثره في الانحراف عن مقتضى الوحي.

ونقل قول النووي - رحمه الله - في بيان شرف الاتباع: "أي: أن الشخص يجب عليه أن يعرض عمله على الكتاب والسنة، ويخالف هواه ويتبع ما جاء به صلى الله عليه وسلم، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] فليس لأحد مع الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم أمر ولا هوى" (١).

ويؤكد هذا المعنى ما جاء في سياق التحذير من الانحراف والاختلاف، حيث قال ﷺ: "إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم على أنبيائهم" (٢)، وقد قرر العلماء أن من أعظم أسباب هذا الاختلاف اتباع الأهواء وتقديم الرأي والميل النفسي على الوحي، مما يفضي إلى التفرق والضلال، وفي هذا المعنى يذكر القاسمي - رحمه الله - في تفسيره عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [ال عمران: ١٠٥]، قال القاسمي - رحمه الله: "ينهى تعالى عباده أن يكونوا كاليهود في افتراقهم مذاهب، واختلافهم عن الحق بسبب اتباع الهوى، وطاعة النفس، والحسد، حتى صار كل فريق منهم يصدق من

(١) فتح القوي المتين في شرح الأربعين وتنمة الخمسين للنووي وابن رجب رحمهما الله، عبد المحسن بن حمد بن عبد المحسن بن عبد الله بن حمد العباد البدر، ط ١، دار ابن القيم، الدمام المملكة العربية السعودية، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، (١/١٣٤).

وقال ابن رجب - رحمه الله، " والمعروف في استعمال الهوى عند الإطلاق أنه الميل إلى خلاف الحق، كما في قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، [ص: ٢٦]، وقال سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مِنْ مَقَامِ رَبِّهِ وَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات ٤٠: ٤١]، وقد يطلق الهوى بمعنى المحبة والميل مطلقاً، فيدخل فيه الميل إلى الحق وغيره، وربما استعمل بمعنى محبة الحق خاصة والانقياد إليه، روائع التفسير (الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي)، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السلافي، البغداد، جمع وترتيب: أبي معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، ط ١، دار العاصمة، المملكة العربية السعودية، (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)، (١/٢٠٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، ومسلم في صحيحه، كتاب العلم.

الأنبياء بعضاً دون بعض، ويدعو إلى ما ابتدعه في دينه، فصاروا إلى العداوة والفرقة من بعد ما جاءهم الآيات الواضحة، المبينة للحق، الموجبة للاتفاق على كلمة واحدة، وهي كلمة الحق^(١). ومن خلال هذه النصوص يتبين أن الهوى في السنة النبوية يُراد به: الهوى ميل النفس إلى ما تستلذه من الشهوات من غير داعية الشرع ذكره الراغب وقال الحرالي: "نزوع النفس لسفل شهواتها في مقابلة معتلى الروح المنبعث انبساطه"^(٢)، وقيل: "ميل النفس إلى خلاف ما يقتضيه الشرع"^(٣).

المبحث الأول: أسباب اتباع الهوى ومظاهره في ضوء السنة النبوية

المطلب الأول: أسباب اتباع الهوى في السنة النبوية

أولاً: ضعف العلم الشرعي

ضعف العلم يُعدّ الشرعي من أعظم أسباب اتباع الهوى؛ إذ إن الجهل يفتح الباب لتقديم الرأي، والاستحسان، والذوق الشخصي على النص الشرعي، وقد دلّ على ذلك حديث النبي ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بَقْبُضِ الْعُلَمَاءِ..."^(٤)، وهو حديثٌ يبيّن أن فقدان العلم لا يكون بزوال النصوص، وإنما بذهاب حَمَلَتِهَا، فيُفْضَى ذلك إلى تصدّر الجهّال للفتوى والحكم في دين الله بغير بصيرة^(٥).

وقد أوضح العيني - رحمه الله - هذا المعنى في شرحه للحديث، فبيّن أن رفع العلم إنما هو بقبض العلماء، لا بمحو العلم من الصدور، وأن الخلل الحقيقي يقع حين يُتخذ الجهّال رؤساء، فيفتنون بغير علم، وينشرون الضلال، ثم نقل عن القاضي عياض - رحمه الله - تقريره تحقق هذا الوصف في زمانه، وزاد الشيخ قطب الدين تعجباً من ذلك مع وجود العلماء في عصره، ثم عقّب العيني - رحمه الله - بأسى ظاهر على حال الأزمنة المتأخرة، حيث قلّ العلماء الربانيون، وتصدّر غير المؤهلين للتعليم والفتوى، مما يُبذر بانتشار الهوى والاضطراب في الدين^(٦).

(١) محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، المحقق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٤١٨هـ)، (٣٧٦/٢).

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، محمد عبد الرؤوف المناوي، دار الفكر المعاصر، ط١، دار الفكر: بيروت، دمشق، (١٤١٠)، تحقيق: د. محمد رضوان الداية، (٧٤٤/١).

(٣) دستور العلماء أو جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، القاضي عبد رب النبي بن عبد رب الرسول الأحمد نكري، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (١٤٢١هـ/٢٠٠٠م)، تحقيق: عرب عباراته الفارسية، حسن هاني فحص، (١٤٣/١).

(٤) رواه البخاري، كتاب العلم، باب كيف يُقبض العلم، رقم: (١٠٠).

(٥) انظر: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، ط٧، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، (١٣٢٣هـ)، (١٩٥-١٩٦).

(٦) انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابي الحنفى بدر الدين العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت (٨٣/٢).

ويؤكد هذا المعنى ما قرره الدكتور موسى شاهين - رحمه الله - إذ ميّز بدقة بين الرأي المحمود والرأي المذموم، فبيّن أن الذم الوارد في النصوص إنما يتوجّه إلى القول بغير علم، أي الرأي المجرد عن مستند شرعي، لا إلى مطلق الاجتهاد، وأوضح أن الرأي إذا كان قائماً على أصل من كتاب أو سنة أو إجماع، فهو رأي معتبر محمود، بخلاف الرأي المنفصل عن هذه الأصول، فهو سبب الضلال والاضلال، كما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنَظُّونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّ اللَّهَ عَلَّمَكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣]^(١).

يتكامل قول العيني - رحمه الله - مع تقرير د. موسى شاهين - رحمه الله - في بيان العلاقة الوثيقة بين ضعف العلم وانتشار الهوى؛ فالأول يركّز على الأثر الاجتماعي لغياب العلماء الربانيين، وما يترتب عليه من تصدّر الجهال، بينما يضبط الثاني المنهج العلمي في التفريق بين الاجتهاد المشروع والرأي المذموم، وبذلك يتبيّن أن سبب الانحراف ليس في استعمال العقل أو الرأي من حيث هو، وإنما في الانفصال عن الأصول الشرعية وضوابط الاستنباط، وهو ما يجعل ضعف العلم الشرعي مدخلاً خطيراً لاتباع الهوى والانحراف عن الصراط المستقيم.

ثانياً: تقديم الرغبة على الدليل

من الأسباب المركزية لاتباع الهوى تقديم الميل النفسي والرغبة الشخصية على الدليل الشرعي، بحيث يُتلفى النص وفق مقتضيات الهوى، لا أن يُوزن الهوى بميزان الوحي، وقد عبّر النبي ﷺ عن هذا الأصل الجامع بقوله: "لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ"^(٢)، فجعل خضوع الميل الباطن لمقتضى الشرع شرطاً في كمال الإيمان، فالخير كلّ الخير فيما جاء به، لا فيما توهاه نفسه؛ لأنها أقمار بالسوء^(٣).

(١) انظر: فتح المنعم شرح صحيح مسلم، الأستاذ الدكتور موسى شاهين لاشين، ط ١، دار الشروق، (لدار الشروق)، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م)، (٢١٢/١٠).

(٢) أخرجه البغوي في شرح السنة (٢١٢/١-٢١٣)، حديث رقم: (١٠٤) شرح السنة، تأليف محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد زهير الشاويش، ط ٢، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، قال النووي في آخر الأربعين النووية "حسن صحيح"، شرح الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية، تأليف تقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري المعروف بابن دقيق العيد، مؤسسة الريان، الطبعة السادسة، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، وقال الحافظ في الفتح (٢٨٩/١٣): أخرجه الحسن بن سفيان وغيره؛ ورجاله ثقات، فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز ومحب الدين الخطيب، مع تنظيم الأبواب والأحاديث وذكر أطرافها بواسطة محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر (مصور عن الطبعة السلفية)، وقال الحافظ ابن رجب: "تصحيح هذا الحديث بعيد جداً من وجوه..." جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السلافي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي، المحقق: شعيب الأرنؤوط - إبراهيم باجس، ط ٧، مؤسسة الرسالة، بيروت، (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)، (٣٩٤/٢).

(٣) انظر: مشارق الأنوار الوهاجة ومطالع الأسرار البهجة في شرح سنن الإمام ابن ماجه، محمد بن علي بن آدم بن موسى، ط ١، دار المغني، الرياض، المملكة العربية السعودية، (١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م)، (٢٨٢/١).

وقد بيّن المناوي - رحمه الله - في شرحه للحديث أن كمال الإيمان لا يتحقق إلا إذا كان هوى المؤمن تابعاً للدين الخفيف، لا مستقلاً عنه ولا مزاحماً له، وعَلَّل تفضيل الصحابة رضي الله عنهم بكونهم بلغوا هذه المرتبة، إذ وافقت أهواؤهم ما جاءت به الشريعة السمحة، التي اتسمت بالوضوح والبيان، فصار الحق عندهم أحبَّ إلى النفوس من الأهواء، وأولى بالاتباع من العادات والرغبات، ويُفهم من تقريره أن تقديم الدليل على الهوى ليس مجرد التزام شكلي، بل ثمرة رسوخ الإيمان وتمام الانقياد الباطن^(١).

ويُفصّل ابن الملتن - رحمه الله - هذا المعنى من جهة التربية القلبية، فيوضح أن المراد بخضوع الهوى للوحي ليس الاقتصار على مجاهدة النفس مع الشعور بالمشقة، بل بلوغ درجة يميل فيها القلب والطبع إلى ما جاءت به الشريعة ميلاً طبيعياً، كما تميل النفوس إلى محباتها الدنيوية، بحيث يكون الامتنال ناشئاً عن محبة ورضاً، لا عن كلفة وتصبر مجردين، وفي هذا إشارة دقيقة إلى أن المنهج النبوي لا يكتفي بقمع الهوى، بل يسعى إلى تهذيبه وإعادة توجيهه^(٢).

ويؤكد السبكي - رحمه الله - هذا المعنى من زاوية نقد الواقع، إذ نبّه إلى انحراف كثير من الناس حين قدّموا عاداتهم الموافقة لأهوائهم على السنة، ثم تجاوزوا ذلك إلى استقباح السنة وأهلها، وهو ما يكشف عن انتقال الهوى من مجرد ميل نفسي إلى معيار عملي في التقييم والاختيار، وهذا التنبيه يبرز خطورة تقديم الرغبة على الدليل، لما يفضي إليه من انقلاب في الموازين وجراً على النص وأهله^(٣)، فتقديم الرغبة على الدليل يمثل جوهر اتباع الهوى، والسنة النبوية - كما قررها شراح الحديث - لا تعالج هذه الآفة بقهر النفس فقط، بل ببناء ميل منضبط بالوحي، يُعيد ترتيب المحبوبات، ويجعل الدليل الشرعي هو الحاكم على الرغبات والعادات، لا العكس، وبذلك يتحقق كمال الإيمان واستقامة المنهج.

ثالثاً: الغفلة عن الآخرة

عُدّت الغفلة عن الآخرة من أعظم الأسباب التي تُطلق للنفس أهواها، وتُضعف سلطان التقوى والمراقبة؛ إذ إن استحضار الجزاء الأخروي هو الميزان الذي تُوزن به الرغبات، والكابح الذي يمنع النفس من الانسياق وراء الشهوات عند تعارضها مع مقتضى الشرع، وقد عبّر النبي ﷺ عن هذه الحقيقة بتعبير بالغ الإيجاز والدقة، قال

(١) انظر: الإتحافات السننية بالأحاديث القدسية، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحداي ثم المناوي القاهري، الشارح: محمد منير بن عبده أغا النقلي الدمشقي، شرحه باسم "النفحات السلفية بشرح الأحاديث القدسية"، المحقق: عبد القادر الأرناؤوط - طالب عواد، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، (٦٧/١).

(٢) انظر: المعين على تفهم الأربعين، ابن الملتن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري، دراسة وتحقيق: الدكتور دغش بن شبيب العجمي، ط١، مكتبة أهل الأثر للنشر والتوزيع، حولي، الكويت، (١٤٣٣هـ/٢٠١٢م)، (٤٣٦/١).

(٣) انظر: المنهل العذب المورود شرح سنن الإمام أبي داود، محمود محمد خطاب السبكي، عني بتحقيقه وتصحيحه، أمين محمود محمد خطاب، ط١، مطبعة الاستقامة، القاهرة، مصر، (١٣٥١-١٣٥٣هـ)، (٢٦٧/٤).

النبي ﷺ: "حُفَّتِ الجنةُ بالمكاره، وحُفَّتِ النارُ بالشهوات"^(١)، وقد بيّن القاضي عياض - رحمه الله - أن هذا الحديث من بديع جوامع كلمه ﷺ، لما تضمّنه من تمثيلٍ بليغ؛ إذ شبه الطريقين بحفاف الشيء وجوانبه، فدلّ على أن الوصول إلى الجنة لا يكون إلا بتجاوز المكاره، وأن اتباع الشهوات وما تميل إليه النفوس يفضي بصاحبه إلى النار، وفي ذلك تنبيه صريح على وجوب اجتناب الشهوات إذا كانت سبباً للهلاك، ويكشف هذا البيان أن الخلل ليس في وجود الميل، وإنما في إطلاقه دون ضبط أو نظرٍ في المال^(٢).

ويؤكد الألوسي - رحمه الله - هذا المعنى من جهة عقلية تربوية، حين قرر أن الله تعالى ركب في الإنسان عقلاً وظيفته النظر في العواقب واختيار الأصلح، وإن كان في بدايته مشقة ومؤونة على النفس، بينما الهوى على الضد من ذلك؛ إذ يؤثر اللذة العاجلة ودفع الأذى الآتي، ولو أعقب ذلك ضرراً أعظم، وضرب لذلك مثل الصبي المريض الذي يختار ما يضره لسهولة احتماله، ويعرض عما ينفعه لمشقته^(٣).

كما أشار عبد الكريم الخطيب - رحمه الله - إلى: البعد السلوكي لهذا التوجيه النبوي، مبيّناً أن الاستقامة على طاعة الله لا تتحقق إلا بقهر أهواء النفس ومغالبة الشهوات، وأن هذه المجاهدة إنما تثقل على النفس عند الغفلة عن الآخرة، وتخفّ وتُحتمل إذا استقرّ اليقين بالجزاء^(٤).

المطلب الثاني: مظاهر اتباع الهوى في الاعتقاد والسلوك وآثارهما

أولاً: اتباع الهوى في الفهم الديني

من أخطر مظاهر اتباع الهوى: تحكيم الرغبة والميل النفسي في فهم النصوص الشرعية، بحيث لا يتلقّى الدليل بوصفه حاكماً على الهوى، بل يُعاد توجيهه أو تأويله أو تجزئته بما يوافق الميل المسبق، ويُعرض عما يخالفه، وقد حذّر النبي ﷺ من هذا المسلك تحذيراً بالغاً حين قال: "يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم"^(٥)، فليس المراد بهذا الوصف قصور التلاوة أو ضعف الحفظ، وإنما - كما بيّن شراح الحديث - خللٌ في الفهم والمقصد؛ إذ بقيت النصوص في حدود الألسنة، ولم تنفذ إلى القلوب لتقود الإرادة والسلوك، فصار القرآن مقروءاً لا متبوعاً، ومحفوظاً لا محكماً.

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب ما جاء في أن النار محفوفة بالشهوات والجنة بالمكاره، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (١٤٢/٨)، رقم: (٢٨٢٣).

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم للقاضي عياض المسّمّي إكمالاً للمؤلّف بقوائد مُسلم، عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي، المحقق: الدكتور يحيى إسماعيل، ط١، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، (١٤١٩هـ/١٩٩٨م)، (٣٥٧/٨).

(٣) انظر: روح البيان، لإسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الحلوتي، المولى أبو الفداء، دار الفكر، بيروت، (٤٨٥/٧).

(٤) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب، دار الفكر العربي، القاهرة، (١٠٣/٧).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قول الله عز وجل، الجامع الصحيح المختصر، تأليف محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، ط٣، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

وقد قرر ابن تيمية - رحمه الله - هذا المعنى تقريراً دقيقاً، حين بيّن أن هؤلاء إنما أخذوا ظواهر النصوص دون فقه مقاصدها، أو صرفوها لخدمة أهوائهم ومذاهبهم، فكانت النتيجة أن انقلب الدليل من كونه هادياً إلى الحق إلى كونه حجةً على صاحبه لا له^(١)، ويكشف هذا التحليل أن الخلل ليس في أصل الاستدلال بالنص، بل في تسخير النص لإرادة سابقة، وهو جوهر اتباع الهوى في الفهم الديني؛ إذ يتقدّم المقصد النفسي على مقتضى الدلالة الشرعية.

ويُكمل الشاطبي - رحمه الله - هذا البيان من زاوية منهجية أصولية، حين قرر أن من العلامات الفارقة لأهل الأهواء التعلّق ببعض الأدلة وترك مجموعها، وأن صاحب الهوى لا ينظر إلى الشريعة بوصفها بناءً كلياً متناسقاً، بل يتعامل معها انتقائياً، فيأخذ منها ما يوافق غرضه، ويترك ما يخالفه، ولو كان أوضح دلالةً وأقوى حجة، وهذا المسلك - وإن تزيّن بظاهر الاستدلال - يفضي في حقيقته إلى تشويه الفهم الديني، وإخراج النصوص عن سياقها المقصود^(٢).

ومن هنا يتبيّن أن اتباع الهوى في الفهم لا يتمثل في الإعراض عن النصوص، بل قد يظهر - وهو الأخطر - في التمسك الجزئي بما على وجه يخدم الهوى، مع إهمال ضوابط الفهم، ومقاصد الشريعة، وجمع الأدلة.

ثانياً: اتباع الهوى في الفتوى والحكم

ومن مظاهر اتباع الهوى العملية: ظهوره في مجال الفتوى والحكم، حين يُستبدل ميزان الشرع بميزان المصلحة، أو يُلوى عنق النصوص لتبرير واقع مفروض أو هوى متبع، وقد نبّه النبي ﷺ إلى خطورة هذا الباب بقوله: "القضاة ثلاثة: قاضيان في النار، وقاضٍ في الجنة..."^(٣)، فبيّن أن الهالك يلحق من حكم بغير الحق، سواء كان ذلك عن جهلٍ أو عن علمٍ مع مخالفة، وكلاهما صورة من صور الانحراف عن مقتضى الشرع.

وقرّر أحمد شاكر - رحمه الله - أن الحكم بغير ما أنزل الله تعالى لا يُنزّل منزلةً واحدة، ولا يُحمل على وجهٍ واحد؛ فالحاكم إذا قضى في واقعة بعينها بغير حكم الله، فقد يكون جاهلاً بالحكم، أو يكون عالماً به لكن حمله الهوى أو المعصية على مخالفته، أو يكون متأولاً مجتهداً مع إقراره بأصل الاحتكام إلى الكتاب والسنة، ولا يلزم من ذلك جعل مخالفته شريعةً عامة أو حكماً ملزماً للأمة، وبيّن أن صرف الآثار الواردة في هذا الباب إلى غير معناها، إمّا لتبرير الواقع أو لنصرة ظالم، مسلّك تحكّم الأهواء ويؤدي إلى تحريف دلالة النصوص، وأن أخطر صور الحكم بغير ما أنزل الله ما كان عن هوى مع قيام العلم، لا عن جهلٍ أو تأويل^(٤).

(١) انظر: الصارم المسلول على شاتم الرسول، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحارثي، المحقق:

محمد محي الدين عبد الحميد، الحرس الوطني السعودي، المملكة العربية السعودية، (ص: ١٨٥).

(٢) الاعتصام، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، تحقيق: سليم بن عبد الهاللي، ط ١، دار ابن عفان، السعودية، (١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، (٦٧-٦٦).

(٣) سبق تحريجه.

(٤) حُكْمُ الْجَاهِلِيَّةِ، أحمد بن محمد عبد القادر المعروف بأحمد شاكر، مكتبة السنة، (ص ٤٣).

كما نبّه ابن رجب - رحمه الله - إلى أن الحلل في الفتوى إنما يقع إذا كانت صادرة عن مجرد ظنٍّ أو ميلٍ إلى هوى، دون مستندٍ من دليل شرعي؛ أما إذا كانت الفتوى قائمةً على دليلٍ صحيح من كتابٍ أو سنة، فالواجب على المستفتي قبولها والانقياد لها، ولو لم ينشرح لها صدره، لأن المدار على الدليل لا على موافقة الهوى أو الشعور النفسي^(١).

ومن هنا: يتبيّن أن اتباع الهوى في الفتوى والحكم من أخطر صور الانحراف؛ إذ يُستبدل فيه الوحي بالميل النفسي، فيتحوّل الحكم من ميزانٍ للعدل إلى أداة تبرير، ويغدو الانحراف مع قيام الدليل أخطر من الجهل، لأن معيار صحة الفتوى هو الدليل الشرعي لا موافقة الأهواء، وبذلك يفسد العدل ويختلّ مقصود الشريعة.

ثالثاً: اتباع الهوى وأثره في الانحراف السلوكي ومآلاته العقدية كما جاءت في السنة النبوية

المعاصي التي يقتربها العبد في غالب أحواله لا تصدر إلا عن استجابةٍ لداعي الهوى، مع الإعراض عن حكم الشرع في الفعل والاختيار، وقد قرّر ابن رجب - رحمه الله - أن الذنوب والمعاصي إنما تنشأ ابتداءً من غلبة الهوى على داعي الإيمان، فإذا ضعفت المجاهدة واستمر الاسترسال، تحوّلت المعصية من فعلٍ عارض إلى نمطٍ سلوكيّ مستقر، حتى يُستحسن المنكر ويُستقبح المعروف^(٢)، ويترك العبد متابعة الهدى إلى مطاوعة الهوى، فكأنما صار عبداً له^(٣)، وهذا هو المعنى الذي دلّ عليه قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَرَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَلُبِهِ ۖ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشًوَةً فَمِنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣]، حيث شبه الله تعالى الهوى بالمعبود؛ لما يترتب على طاعته من صرف الإرادة والعمل عن مقتضى العبودية الخالصة له سبحانه.

ويؤكد الغزالي - رحمه الله - أن تهذيب النفس لا يتحقق إلا بمخالفة الهوى في الأفعال والسلوكيات، وأن من استرسل مع شهواته فسدت أخلاقه واضطربت أعماله، وإن تزيّنت ظواهره بالصلاح؛ مما يوضح كيف يتحوّل الهوى من ميلٍ نفسيٍّ باطنيٍّ إلى انحرافٍ أخلاقيٍّ وسلوكيٍّّ ظاهر، تتجلى آثاره في واقع الإنسان وتعاملاته^(٤). وقد قرن بين اتباع الهوى والضلال عن سبيل الله، ورُتب على ذلك وعيداً شديداً، مما يدل على خطورة هذا المسلك وسوء مآلاته على الفرد والمجتمع، وفي المقابل مدح الله من نهي نفسه عن الهوى، وزجرها عن الشهوات،

(١) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، ابن رجب، (١٠٢/٢).

(٢) المرجع السابق، (٣٤٠/٢).

(٣) انظر: تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (٧٣/٨).

(٤) انظر: إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، دار المعرفة، بيروت، (٧٦/٤).

وضبطها بالصبر والتوطين على الخير^(١)، فلم يغتر بزخارف الدنيا ولا بمتاعها الزائل، علماً بوخامة عاقبتها وسوء مآل الانسياق وراء شهواتها^(٢).

ولا يقتصر اتباع الهوى على مجالات الاعتقاد أو الاجتهاد الفقهي فحسب، بل يمتد أثره إلى السلوك العملي والأخلاق الظاهرة، حين تُقدّم الشهوة أو المصلحة الشخصية أو العصبية على القيم الشرعية، فيُقدّر المنكر ويُغفل المعروف، ويختلّ بذلك ميزان الاستقامة العملية.

رابعاً: نماذج نبوية تحذّر من صور الهوى العملية

جاءت السنة النبوية زاخرةً بنماذج تطبيقية تُجسّد خطر اتباع الهوى في الواقع العملي، ومن ذلك تحذيره ﷺ من الغلو والتنعّط بقوله: "هلك المتنطعون"^(٣)، ويبيّن العلماء أن التنعّط هو مجاوزة الحد بدافع هوى التدبّن أو حب الظهور، لا بدافع الامتثال الصادق، قال القرطبي - رحمه الله: "هم المتعمقون في الكلام، الغالون فيه، ويعني بهم: الغالين في التأويل، العادلين عن ظواهر الشرع بغير دليل؛ كالباطنية، وغلاة الشيعة، وهلاكهم بأن صُرفوا عن الحق في الدنيا، وبأن يعدّوا في الآخرة، والتكرار: تأكيد وتفخيم بعظيم هلاكهم"^(٤).

كما حذّر ﷺ من العصبية الجاهلية، وعدّها من مظاهر الهوى الجماعي، فقال: "ليس منا من دعا إلى عصبية"^(٥)، والعصبي من يعين قومه على الظلم، هو الذي يغضب لعصبته ويحمي عنهم، والعصبة الأقارب من جهة الأب كأنهم يعصبونه ويتعصب بهم أي: يحيطون به ويشند بهم، ومنه الحديث، والتعصب المحاماة والمدافعة^(٦)، ومن هذه النماذج يتضح أن السنة لا تكتفي بالتنظير، بل تُجسّد صور الهوى في الواقع؛ لتحذّر منها، وتُقيم ميزان الاعتدال في الفكر والسلوك.

(١) انظر: الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جاز الله، ط٣، دار الكتاب العربي، بيروت، (١٤٠٧هـ)، (٢١٩/٤).

(٢) انظر: تفسير أبي السعود، (١٠٤/٩).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: العلم، باب: "هلك المتنطعون" (٢٠٥٥/٤) (٢٦٧٠)، وأبو داود في سننه، كتاب: السنة، باب: في لزوم السنة، واللفظ له، (٢٠١/٤) (٤٦٠٨)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) المفهوم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي، حققه وعلق عليه وقدم له: محيي الدين ديب ميسو - أحمد محمد السيد - يوسف علي بديوي - محمود إبراهيم بزال، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط١، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، (١٤١٧هـ/١٩٩٦م)، (٧٠٠/٦).

(٥) أخرجه أبو داود، في سننه، كتاب الأدب، باب في العصبية، (٣٣٢/٤) حديث رقم (٥١٢١)، وقال المحقق: إسناده ضعيف لضعف محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليبيّة، ثم إن عبد الله ابن أبي سليمان لم يسمع من جبير كما جزم به المصنف بإثر الحديث، ابن السرح: هو عمرو بن عبد الله، وابن وهب: هو عبد الله المصري، كما أخرجه مسلم بمعناه في كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر، (١٤٧٦/٣)، حديث رقم: (١٨٤٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، القاري، (٣٠٦٨/٧).

يتبين مما سبق أن اتباع الهوى يظهر في صور متعددة: في الفهم الديني المنحرف، وفي الفتوى والحكم، وفي السلوك والأخلاق، وفي الممارسات الجماعية، وقد عاجلت السنة النبوية هذه المظاهر بمنهج شامل، يجمع بين تصحيح الفهم، وتقويم السلوك، وضبط المقاصد، وربط ذلك كله برقابة الآخرة، وبذلك تكتمل صورة المنهج النبوي في مواجهة الهوى، من جذوره الباطنة إلى تجلياته الظاهرة.

المبحث الثاني: آثار الهوى والمنهج النبوي في معالجته

المطلب الأول: آثار اتباع الهوى على الفرد والمجتمع

أولاً: الآثار العقدية والفكرية

يُعَدُّ اتباع الهوى مدخلاً خطيراً للشك في الأصول الإيمانية؛ إذ ينقل النفس من مقام التلقي الخالص للوحي إلى مقام التمحيص المنحاز، حيث يُقَدَّم الميل النفسي على مقتضى الدليل، وقد حذّر النبي ﷺ من الفتن التي تُزَلِّز الإيمان وتُغَلِّب القلوب بقوله: "بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتْنًا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلَمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا"^(١)، فالحديث يُصَوِّر سرعة التحول العقدي عند غلبة الدوافع الدنيوية، حيث يُقَدَّم الهوى على مقتضى الإيمان، ويُستفاد من مجموع النصوص الشرعية وكلام أهل العلم أن هذه الفتن تُنشئ بيئة خصبة للشبهات الفكرية، يبدأ أثرها غالباً في الجانب العملي، ثم يمتد إلى اضطراب التصور العقدي، حتى تُستبدل الحجج بالشهوات، وتغدو الشبهة معياراً بدل الدليل، قال العثيمين - رحمه الله: "وتكون الفتن - أيضاً - من الشهوات، بمعنى أن الإنسان يعرف أن هذا حرام، ولكن لأن نفسه تدعوه إليه فلا يبالي النبي صلي الله عليه وسلم بل يفعل الحرام، ويعلم أن هذا واجب، لكن نفسه تدعوه للكسل فيترك هذا الواجب، هذه فتنة شهوة، يعني فتنة إرادة"^(٢).

ويؤكد ابن تيمية - رحمه الله - هذا المعنى في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، مبيناً أن الحق إذا ظهر وتكاثر دلائله صار معلوماً بالضرورة، غير أن اتباع الهوى يصدّ عن التصديق به والعمل بمقتضاه، لا لخفاء البرهان، بل لغلبة البغي والعلو، وهذه حال عامة المكذّبين للرسل، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، وقال موسى - عليه السلام - لفرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَزَلَّ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ [الإسراء: ١٠٢] فالعلم بالحق قد يكون حاصلًا، لكن الغفلة عنه واتباع الهوى يحولان دون الانقياد له، كما يغفل الإنسان عما يعلمه"^(٣).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، الإيمان، باب الحُجَّتِ عَلَى الْمُبَادَرَةِ بِالْأَعْمَالِ قَبْلَ تَطَاهُرِ الْفَتَنِ (٧٦/١) (٣٢٨).

(٢) شرح رياض الصالحين: محمد بن صالح بن محمد العثيمين، دار الوطن للنشر، الرياض، (١٤٢٦هـ)، (١٨/٢).

(٣) انظر: النبوات، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، المحقق: عبد العزيز بن صالح الطويان، ط١، أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية، (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م)، (٦٥٨/٢).

ولهذا قرّر أهل العلم أن طاعة الهوى تُضعف عبودية الله، كما قال ابن تيمية - رحمه الله: "فلا يُطاع الهوى؛ فإن اتباع الهوى يضعف عبادة الله وحده"^(١)، ويبيّن ابن القيم - رحمه الله - أن اتباع الهوى يعمي بصيرة القلب، فيلبس على صاحبه الحق بالباطل، حتى يرى البدعة سنّة، والسنة بدعة، وعدّ ذلك من أعظم آفات العلماء إذا أثروا الدنيا واتبعوا الرياسة والشهوة^(٢).

ثانياً: الآثار السلوكية والأخلاقية

يُفضي اتباع الهوى في المجال السلوكي إلى اضطراب ميزان الاعتدال، فيتحوّل السلوك من الانضباط الشرعي إلى الفوضى الأخلاقية، حيث تُقدّم الرغبات الآنية على مقاصد الشريعة وضوابطها، وقد قرّر القرآن هذا الأصل في قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، فجعل الإسراف مظهرًا من مظاهر مجاوزة الحدّ المشروع، ودليلاً على غلبة الهوى على توجيه السلوك، وجاء في السنّة ما يقرّر هذا المعنى ويؤكدّه، كقوله ﷺ: "كُلُوا وَاشْرَبُوا، وَابْسُؤُوا، وَتَصَدَّقُوا فِي عَيْرِ إِسْرَافٍ، وَلَا تَحْمِلِيهِ"^(٣)، فدّل الحديث على أن أصل الإباحة في متع الحياة مقيّدٌ بقيد عظيمين: اجتناب الإسراف، وانتفاء الكبر، وكلاهما من ثمرات ضبط الهوى^(٤). ومن خلال هذا التأسيس يبيّن أن الإسراف ليس مجرد خطأ سلوكي جزئي، بل ثمرّة مباشرة لاتباع الهوى؛ إذ يُغفل صاحبه الحدّ الشرعي، ويُطلق الشهوة بلا رقيب، فينقلب التمتع المباح إلى انغماسٍ يُفسد الأخلاق ويضعف مراقبة الله، كما بيّن د. موسى شاهين - رحمه الله - في شرح صحيح مسلم حول هذا المعنى^(٥)، فدفع هوى النفس بتحرير النية من كون الطعام واللباس الحسن خيلاء وتكبر وتفاخر لكونها إظهاراً لنعمة الله ومعرفة المحتاج له ليقصده بمحاجته.

يشير ابن القيم الجوزية - رحمه الله - إلى أن الإسراف والانقياد وراء الهوى يُحيل الإنفاق من عبادة وقرية إلى مجرد إشباع للرغبات، فيختل بذلك توازن النفس ويضعف الصلة بين المال والغاية الأخلاقية، فالكرم الحقيقي يتطلب حكمة وضبط النفس، والإنفاق على أساس الهوى يفضي إلى أنانية خفية تُقاس فيها الأفعال بلذتها، لا بآثارها الاجتماعية والأخلاقية، فيختل تماسك الشخصية الأخلاقية ويغيب البعد المقاصدي للسلوك^(٦).

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: (١٤١٦هـ/١٩٩٥م)، (٢٨٦/١٠).

(٢) انظر: الفوائد: لابن قيم الجوزية، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٣٩٣هـ/١٩٧٣م)، (١٠١/١).

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأطعمة، حديث رقم: (٥٠٧٥).

(٤) انظر: فتح الباري، لابن حجر، (٢٥٤-٢٥٣/١٠).

(٥) فتح المنعم شرح صحيح مسلم، الأستاذ الدكتور موسى شاهين لاشين، (٣٤٤/٨).

(٦) انظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، ط٣، دار الكتاب العربي، بيروت، (١٤١٦هـ/١٩٩٦م)، (٢٩٤/٢).

ثالثاً: الآثار الاجتماعية والأمنية للهوى والفحش

لا يقف أثر اتباع الهوى عند حدود الانحراف الفردي في الاعتقاد أو السلوك، بل يتعدى ذلك إلى الإضرار بالبنية الاجتماعية والأمنية للمجتمع؛ إذ يؤدي إلى تفكيك منظومة القيم الضابطة للعلاقات الإنسانية، وتحويل الروابط القائمة على العدل والأمانة إلى علاقات تحكمها الأهواء والمصالح الضيقة، فمتى غلب الهوى، ضُغف سلطان الحق، واختل ميزان العدل، وتراجعت الثقة بين الناس، وهو ما يُفرض بالضرورة إلى اضطراب الأمن واستئثار الظلم، وقد نبّه النبي ﷺ إلى هذه النتائج في حديثه الشريف: "سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَاعَاتٌ، يُصَدِّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذِّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْمِنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوِّنُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّؤِيضَةُ"، قِيلَ: وَمَا الرُّؤِيضَةُ؟ قَالَ: "الرَّجُلُ التَّافَهُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ"^(١)، ويبيّن هذا الحديث بجلاء كيف أن اتباع الهوى يفرض إلى اضطراب القيم الاجتماعية، بحيث تُقدّم الرغبات الشخصية على الحق والعدل، ويزداد الظلم، فتتهار الثقة ويضعف الأمن بين الناس^(٢).

ويقرر ابن القيم - رحمه الله - أن الذنوب والمعاصي إذا شاعت علناً كانت سبباً مباشراً في فساد المعاش واضطراب أحوال الناس، إذ يذكر: إن المعاصي تُفسد العقول، وتُضعف الإرادات، وتقطع ما بين العبد وربه، كما تُفسد ما بينه وبين الخلق، فاجتماع الفاسدين هو عين الخلل الاجتماعي والأمني^(٣).

كما يربط تيمية - رحمه الله - بين الظلم الاجتماعي واتباع الهوى، مقررًا أن أكثر الظلم إنما يقع إذا قُدِّمت الأهواء على الشرع، وأن العدل لا يقوم إلا على تحكيم الوحي، لا على الأذواق والرغبات^(٤)، فحين يُحتكم إلى الهوى، تتبدّل القيم، ويُبرّر الفساد، ويُستباح الحق العام، مما يهتّي البيئة للفوضى وذهاب الأمن، ولو توقّرت للمجتمع أسباب القوة الظاهرة.

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤٦٥-٤٦٦) من طريق يزيد بن هارون، و(٥١٢/٤)، من طريق حجاج بن محمد، كلاهما عن عبد الملك بن قدامة، عن إسحاق بن بكر بن أبي الفرات، عن سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة، فزاد في إسناده أبا سعيد المقبري، وأخرجه ابن ماجه في السنن كتاب الفتن، باب: شدة الزمان، (١٣٣٩/٢) (٤٠٣٦)، وأخرجه أحمد في المسند (٨٤٥٩) من طريق فليح بن سليمان، عن سعيد بن عُبيد بن السباق، عن أبي هريرة، وقال المحقق: "حديث حسن، وهذا إسناده ضعيفٌ لضعف عبد الملك بن قدامة، وجهالة إسحاق بن بكر بن أبي الفرات، وللحديث إسناده آخر سيأتي برقم: (٨٤٥٩)، فهو مجموع الطريقين يصير حسناً، وله شاهدٌ من حديث أنس سأتى الإشارة إليه في آخر التخریج"، مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط١، مؤسسة الرسالة، (١٤٢١هـ/٢٠٠١م)، (٢٩١/١٣) (٧٩١٢).

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، لابن رجب الحنبلي، (١٣٩/١-١٤٠).

(٣) انظر: الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الدواء والدواء، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، ط١، دار المعرفة، المغرب، (١٤١٨هـ/١٩٩٧م) (٥٩/١).

(٤) انظر: جامع الرسائل، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، المحقق: د. محمد رشاد سالم، ط١، دار العطاء، الرياض، (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)، (٢٠٦/٢).

وبذلك يتبين أن انتشار الفحش واتباع الهوى ليس مجرد خلل أخلاقي جزئي، بل عامل هدم شامل للنظام الاجتماعي؛ إذ يُفضي إلى انهيار الثقة، وضعف الأمانة، وشيوع الظلم، وغياب الطمأنينة، فتتفكك الجماعة وتضطرب أحوالها، فالأمن في التصور الشرعي ثمة لاستقامة القيم وضبط الشهوات، لا مجرد نتاج لإجراءات مادية أو نظم إدارية.

المطلب الثاني: المنهج النبوي في معالجة الهوى

أولاً: ترسيخ تقديم الوحي على الهوى

يُعدّ تقديم الوحي على الهوى الأصل الأعظم في المنهج النبوي لمعالجة الانحراف؛ إذ إن الهوى لا يُواجه في حقيقته بمجرد الزجر السلوكي، وإنما يُعالج بتصحيح مرجعية التلقّي والاستدلال، فالإيمان الحقّ قائم على التسليم والانقياد، لا على التخيير والانتقاء، ولذلك قرّر النبي ﷺ هذا الأصل تقريراً جامعاً في قوله: "لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ نَبْعًا لِمَا جَنَّتْ بِهِ"^(١)، فجعل انقياد الهوى للوحي شرطاً في كمال الإيمان، لا ثمرة اختيارية له، ويؤكد ابن رجب - رحمه الله - أن محبة الله ورسوله ﷺ الصادقة تقتضي الطاعة التامة لما أحبه الله ورسوله ﷺ واجتناب ما كرهه، وأن وقوع العبد في مخالفة ذلك يدل على نقص في المحبة الواجب تكميلها بالتوبة، فالمعاصي والبدع كلها تنشأ من تقديم هوى النفس على محبة الله ورسوله^(٢).

ويؤكد القرآن الكريم هذا المعنى تأكيداً منهجياً في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾، حيث جعل عدم الاستجابة للوحي قرينةً ظاهرة على تحكيم الهوى، وهو ما يدل على أن أصل الانحراف ليس فقدان الدليل، بل العدول عنه إلى الميل النفسي وهو ما ذهب إليه جمهور المفسرين، فقد قرروا أن الآية دليل على أن جميع المعاصي تنشأ من تقديم هوى النفس على محبة الله ورسوله ﷺ، وقد وصف الله المشركين باتباع الهوى في مواضع من كتابه، فالبدع إنما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع، ولهذا يسمى أهلها أهل الأهواء، وكذلك المعاصي إنما تقع من تقديم الهوى على محبة الله، ومحبة ما يحبه، فيجب على المؤمن محبة الله ومحبة من يحبه الله من الملائكة والرسل والأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين عموماً، ولهذا كان من علامات وجود حلاوة الإيمان أن يحب المرء لا يحبه إلا الله، ويحرم موالاة أعداء الله ومن يكرهه الله عموماً، وقد سبق ذلك في موضع آخر، وبهذا يكون الدين كله لله^(٣).

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، لابن رجب الحنبلي، (٣٧٩/٢).

(٣) انظر: روائع التفسير (الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي)، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السلاوي، جمع وترتيب: أبي معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، ط١، دار العاصمة، المملكة العربية السعودية، (١٤٢٢/١/٢٠٠م)، (٢٠٢/١)، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جاز الله، ط٣، دار الكتاب

وقد قرّر أهل العلم أن تقديم الرأي والذوق على النص أصل كل الضلال والابتداع، فقال ابن تيمية -رحمه الله - تعليقاً على الفرق الضالة كالجهمية والملاحدة: "ومبدأ هذا من أقوال الذين يعارضون النصوص بأرائهم، كما ذكر الشهر ستاني في أول كتابه في الملل والنحل أن مبدأ أنواع كل الضلالات هو من تقديم الرأي على النص واختيار الهوى على الشرع، فسرى في المنتسبين إلى لا علم والدين، من أهل الفقه والكلام والتصوف من أقوال الملاحدة بسبب هذا الأصل مالا يعلمه إلا الله"^(١).

يفصل ابن تيمية - رحمه الله - هذا الأصل تفصيلاً دقيقاً، فيجعل التسليم للنصوص والشرع ميزان النجاة، ويبيّن أن تقديم الهوى سبب الانقلاب في الموازين، فيقول: "لكن معلوم وجوب تقديم النص على الرأي، والشرع على الهوى؛ فالأصل الذي افترق فيه المؤمنون بالرسول والمخالفون لهم: تقديم نصوصهم على الآراء وشرعهم على الأهواء، وأصل الشر من تقديم الرأي على النص والهوى على الشرع؛ فمن نور الله قلبه فرأى ما في النص والشرع من الصلاح والخير، وإلا فعليه الانقياد لنص رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وشرعه وليس له معارضته برأيه وهواه"^(٢)، كما حذّر العلماء من أن الابتداع في الدين ينشأ من تقديم الهوى باسم المقاصد أو المصالح، فقالوا: "ومن خطورة الابتداع في الدين أيضاً كونه اتباعاً للهوى ومعاندة للشرع فلذا نرى السلف الصالح رحمهم الله يحذرون من اتباع الهوى لأنه يجر إلى البدع هذا وقد أثرت عن عمر بن عبد العزيز آثار في النهي عن اتباع الهوى والابتداع في الدين، والتحذير من اتباع أهل الأهواء"^(٣).

يتبين من هذا العرض أن ترسيخ تقديم الوحي على الهوى هو حجر الأساس في المنهج النبوي لمعالجة الانحراف، إذ يربط بين صحة الاعتقاد وسلامة السلوك، فالانقياد لله ورسوله ﷺ يحفظ الدين من البدع، ويقي النفس من الانحرافات، ويضمن توازن العلاقة بين محبة الله والابتعاد عن أهواء النفس.

ثانياً: بناء ميزان التقوى وضبط النفس

إذا كان تقديم الوحي على الهوى هو الأساس المنهجي لمعالجة الانحراف، فإن بناء ميزان التقوى هو الضابط العملي الذي يحول دون استجابة النفس لدواعي الهوى عند ورود الفتن والشهوات، فالتقوى في المنهج النبوي

العربي، بيروت، (١٤٠٧هـ)، (٢٢٠/٣)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحي، ط١، مؤسسة الرسالة، (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م)، (٦١٧/١).

(١) درء تعارض العقل والنقل، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني، تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم، ط٢، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، (١٤١١هـ/١٩٩١م)، (٧/٥).

(٢) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، المحقق: محمد رشاد سالم، ط١، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، (٤١١/٨).

(٣) انظر: مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، (ص: ٦٣) تأليف د. إبراهيم البريكاني، دار السنة الخير عام (١٤١٥هـ)، الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة، حياة بن محمد بن جبريل، ط١، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م)، (٦٤٣/٢).

ليست حالة وجدانية مجردة، بل منظومة رقابية داخلية تضبط السلوك، وتمنع النفس من الانسياق وراء الرغبات المخالفة للشرع، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى بقوله: "التَّقْوَى هَاهُنَا"^(١)، مشيراً إلى صدره، دلالة على أن مركز الضبط الحقيقي هو القلب، وأن صلاح الظاهر مرهون بصلاح الباطن^(٢).

ويؤكد أهل العلم أن التقوى تضعف سلطان الشهوة وتقوي سلطان الإيمان، قال الحسن البصري - رحمه الله: "ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام"^(٣)، مشيراً إلى أن ضبط النفس لا يقتصر على ترك المحرم فحسب، بل يشمل تهذيب الشهوة حتى لا تقود إلى المحذور، لذا قيل: من صبر على شدتها - أي مشقة الطاعات وعبادات الله غالباً ما تتطلب مجاهدة النفس وصبراً على الصعاب البدنية والروحية - أفضى إلى السهولة والراحة وإنما هي مجاهدة النفس ثم مخالفة الهوى ثم مكابدة ترك الدنيا ثم الإقبال على ربه خائفاً راجياً ثم اللذة والنعيم^(٤).

كما يربط ابن القيم - رحمه الله - بين ضعف التقوى وقوة الهوى، فيقرر أن النفس إذا خلت من رقيب الإيمان انطلقت وراء شهواتها، قال: "مخالفة الهوى تورث العبد قوة في بدنه وقلبه ولسانه قال بعض السلف الغالب لهواه أشد من الذي يفتح المدينة وحده، كلما تمرن على مخالفة هواه اكتسب قوة إلى قوته"^(٥)، وهذا الربط يبين أن علاج الهوى لا يتحقق بالمنع الخارجي وحده، بل ببناء الرادع الداخلي، يقول القاري: "محاسبة النفس علامة على العقل

(١) أخرجه أحمد في المسند، وقال المحقق: إسناده جيد على شرط مسلم، أبو سعيد مولى عبد الله روى عنه جمع، واحتج به مسلم، وذكره ابن حبان في "الثقات"، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين سوى إسماعيل بن عمر، وهو الواسطي، فمن رجال مسلم، وتابعه أبو نعيم، وهو الفضل بن دكين، (٣٣٨/١٤) (٨٧٢٢).

(٢) انظر: سبل السلام، محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني، الكحلاني ثم الصنعاني، دار الحديث، (٦٧٢/٢)، شرح الأربعين النووية، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، دار الثريا للنشر، (٣٤١/١)، المفهم، للقرطبي (٥٣٧/٦)، فتح الباري، لابن حجر (٤٨٣/١٠-٤٨٤).

(٣) أخرجه: ابن أبي الدنيا كما في الدر المنثور في التفسير المأثور، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، (٦١/١).

(٤) التوضيح عن توحيد الخلاق في جواب أهل العراق وتذكرة أولي الألباب في طريقة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، ط ١، دار طيبة، الرياض، المملكة العربية السعودية، (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، (٣٤٩/١).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، (٢٨/٨) (٦١١٤)، أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب باب فضل من يملك نفسه عند الغضب، (٢٢٦٧/٥) رقم: (٢٦٠٩).

- روضة الحبين ونزهة المشتاقين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، (٤٧٧/١).

والرشد، وليست نوعاً من التضيق أو الحرمان^(١)، وفي حاشية السندي: "أي جعل نفسه تابعة لهاها يعطيها كل ما تحوى وتشتهي"^(٢).

وبذلك يتبين أن بناء ميزان التقوى هو الركيزة الثانية في المنهج النبوي لعلاج الهوى؛ إذ به تستقيم الإرادة، ويُضبط السلوك، ويُسدّ باب الانحراف قبل وقوعه، فمتى وُجدت التقوى ضعفت الشهوة، وإذا غابت التقوى استبدّ الهوى، ولو توفّرت المعرفة وظهر الدليل.

ثالثاً: التربية على المجاهدة ومخالفة الهوى

تمثل مجاهدة النفس الحلقة العملية المكتملة لترسيخ الوحي وبناء التقوى، إذ لا يكفي إدراك الحق ولا وجود الرادع القلبي ما لم تُدرب النفس على مخالفة دواعي الهوى عند تعارضها مع أمر الشرع، ويُبين العلماء أن الجهاد المذكور في الآية يشمل جهاد النفس على الطاعة، وعن المعصية، وعلى الصبر على الأقدار، وهو الأساس الذي بُنى عليه سائر أنواع الجهاد، قال سفيان بن عيينة - رحمه الله: "ما عاجلت شيئاً قط أشد علي من نفسي، مرة علي، ومرة لي"^(٣)، وهذا يدل على أن مجاهدة النفس صراع داخلي دائم لا ينقطع.

ويؤكد الغزالي - رحمه الله - أن مخالفة الهوى هي حقيقة التربية الإيمانية، فأصل مجاهدة النفس مخالفة هواها، فإن الهوى قائدها إلى المهالك^(٤)، فجعل الهوى علة الانحراف، وجعل مخالفته أصل العلاج، كما يربط ابن القيم - رحمه الله - بين المجاهدة وعلو المنزلة الإيمانية، فيقول: "النفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل، وهو القلب إن لم تسكنه محبة الله عز وجل سكنه محبة المخلوقين ولا بد، وهو اللسان إن لم تشغله بالذكر شغلك بالغو"^(٥)، فالمجاهدة هنا فدلّ ذلك على أن ترك المجاهدة لا يعني الحياد، بل الانحراف الحتمي وراء الهوى.

ويؤكد المنهج النبوي هذا المعنى عملياً بربط القوة الحقيقية بقدرة الإنسان على ضبط نفسه، لا بسطوته الظاهرة، فقال ﷺ: "ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب"^(٦)، فجعل كبح الهوى

(١) انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، نور الدين الملا الهروي القاري، (٣١٠/٨).

(٢) حاشية السندي على سنن ابن ماجه = كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه، محمد بن عبد الهادي التتوي، أبو الحسن، نور الدين السندي، دار الجيل، بيروت، (٥٦٥/٢).

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني، السعادة، بجوار محافظة مصر، (١٣٩٤هـ/١٩٧٤م)، وقد طبعت الكتابة أيضاً في: دار الكتاب العربي، بيروت؛ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت؛ دار الكتب العلمية، بيروت، (١٤٠٩هـ)، (٥/٧).

(٤) انظر: إحياء علوم الدين، للغزالي، (٤/٣).

(٥) الوابل الصيب من الكلم الطيب، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: سيد إبراهيم، ط٣، دار الحديث، القاهرة، (١٩٩٩م)، (٨٢/١).

(٦) أخرجه الحاكم في "مستدرکه" (٥٧/١) برقم: (١٩١) (كتاب الإيمان، الكيس من دان لنفسه وعمل لما بعد الموت)، (٢٥١/٤) برقم: (٧٧٣٤) (كتاب التوبة والإنابة، الكيس من دان نفسه) والترمذي في "جامعه" (٢٤٦/٤) برقم: (٢٤٥٩) (أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم)، وقال المحقق: "قال الترمذي: هذا حديث حسن، وصححه الحاكم في الموضعين، فتعقبه الذهبي في الموضع الأول بقوله: لا والله، أبو بكر واه، ولم يتعقبه في الموضع الثاني"، تحقيق أحمد محمد شاكر (ج٢-١)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (ج٣)، وإبراهيم عطوة عوض (ج٤-٥)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط٢، (١٣٩٥هـ/١٩٧٥م)، وابن ماجه في "سننه" (٣٢٨/٥).

وضبط الانفعال مظهرًا من مظاهر القوة الإيمانية، وبذلك تتضح مكانة المجاهدة بوصفها تدريبًا عمليًا للنفس على تقديم مراد الله على مرادها، وتحويل الانقياد للوحي من مجرد قناعة ذهنية إلى سلوك مستقر، قال الصنعاني: "(إنما) الذي ينبغي أن يسمى (بالشديد الذي يملك نفسه) عن الانتصاف (عند الغضب) فيقهر نفسه ويتصرف فيها تصرف المالك بحيث لا يغلبه"^(١).

وخلاصة ذلك أن معالجة الهوى في المنهج النبوي تقوم على منظومة متكاملة: تصحيح المرجعية بتقديم الوحي، وبناء الرقيب الداخلي بالتقوى، وتربية النفس بالمجاهدة والمخالفة، وبهذا تتحقق الاستقامة، ويُحفظ الدين من البدع، وتُصان النفس من الانحراف، ويستعيد الإنسان توازنه بين مقتضيات الفطرة وضوابط الشرع.

الخاتمة:

أولاً: النتائج

- ١- تبين أن الهوى في السنة النبوية يُقصد به غالبًا الميل النفسي إذا عارض الوحي أو قُدِّم عليه، وأن دَمَهُ مرتبط بآثاره العقدية والسلوكية، لا بمجرد وجود الرغبة الفطرية.
- ٢- دلّت النصوص النبوية على أن اتباع الهوى يُعدّ سببًا رئيسًا في الانحراف عن الحق، ويمثل أصلًا لكثير من البدع والمعاصي والاضطرابات السلوكية والفكرية.
- ٣- أظهر البحث أن المنهج النبوي في معالجة الهوى منهج متكامل، يقوم على تقديم الوحي، وبناء التقوى، وتربية النفس على المجاهدة ومخالفة الشهوة.
- ٤- أكدت السنة النبوية أن ضبط الهوى مسؤولية إيمانية فردية ذات آثار جماعية، تحفظ استقامة الفرد وتُسهم في صلاح المجتمع واستقرار منظومته القيمية.

ثانيًا: التوصيات

- ١- العناية بالدراسات الموضوعية في السنة النبوية التي تتناول أمراض القلوب؛ لما لها من أثر بالغ في تهذيب السلوك وتقويم الواقع المعاصر.
- ٢- تعزيز حضور المنهج النبوي في معالجة الهوى في الخطاب الدعوي والتربوي، وربطه بالتحديات الفكرية والسلوكية المعاصرة.
- ٣- توجيه برامج التربية والتعليم الشرعي إلى ترسيخ مبدأ تقديم الوحي على الهوى، وتنمية ملكة المجاهدة وضبط النفس لدى المتعلمين.

برقم: (٤٢٦٠) (أبواب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له)، وأحمد في "مسنده" (٣٧٩٩/٧) برقم: (١٧٣٩٨) (مسند الشاميين رضي الله عنهم، حديث شداد بن أوس رضي الله عنها).

(١) التَّنْوِيرُ شَرْحُ الْجَامِعِ الصَّغِيرِ، محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني، الصنعاني، المحقق: د. محمد إسحاق محمد إبراهيم، ط ١، مكتبة دار السلام، الرياض، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م)، (٢٢٨/٩).

٤ - دعوة الباحثين إلى دراسة أثر اتباع الهوى في الانحرافات الفكرية المعاصرة دراسة تحليلية مقارنة في ضوء السنة النبوية.

المصادر والمراجع:

- الدر المنثور في التفسير بالمأثور. عبد الرحمن بن أبي بكر. جلال الدين السيوطي، دار الفكر: بيروت.
- الإنحافات السنية بالأحاديث القدسية. زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري، الشارح. محمد منير بن عبده أغا النقلي الدمشقي، شرحه باسم «النفحات السلفية بشرح الأحاديث القدسية»، المحقق: عبد القادر الأرناؤوط - طالب عواد، دار ابن كثير: دمشق، بيروت.
- الأثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة. حياة بن محمد بن جبريل. ط ١، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية: المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).
- إحياء علوم الدين. أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي. دار المعرفة: بيروت.
- الاعتصام. إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي. تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، ط ١، دار ابن عفان: السعودية، (١٤١٢هـ/١٩٩٢م).
- تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم. أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ). دار إحياء التراث العربي: بيروت.
- التفسير القرآني للقرآن. عبد الكريم يونس الخطيب. دار الفكر العربي: القاهرة.
- التنوير شرح الجامع الصغير. محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني، الصنعاني. المحقق: د. محمد إسحاق محمد إبراهيم، ط ١، مكتبة دار السلام: الرياض، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).
- التوضيح عن توحيد الخلاق في جواب أهل العراق وتذكرة أولي الألباب في طريقة الشيخ محمد بن عبد الوهاب. سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب. ط ١، دار طيبة: الرياض، المملكة العربية السعودية، (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).
- التوقيف على مهمات التعاريف. محمد عبد الرؤوف المناوي. تحقيق: د. محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر: ط ١، دار الفكر: بيروت، دمشق، (١٤١٠هـ).
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي. المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحي، ط ١، مؤسسة الرسالة: (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).
- جامع الرسائل. تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية. المحقق: د. محمد رشاد سالم، ط ١، دار العطاء: الرياض، (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).

- الجامع الصحيح المختصر. تأليف محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي. تحقيق د. مصطفى ديب البغا، ط ٣، دار ابن كثير: اليمامة، بيروت، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).
- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم. زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السلامي، البغدادي، ثم الدمشقي الحنبلي. المحقق: شعيب الأرنؤوط - إبراهيم باجس، ط ٧، مؤسسة الرسالة: بيروت، (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).
- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الدواء والدواء. محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية. ط ١، دار المعرفة: المغرب، (١٤١٨هـ/١٩٩٧م).
- حاشية السندي على سنن ابن ماجه = كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه. محمد بن عبد الهادي التتوي، أبو الحسن، نور الدين السندي. دار الجليل: بيروت.
- حكمُ الجاهليَّة. أحمد بن محمد عبد القادر المعروف بأحمد شاكر. مكتبة السنة.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء. أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني. السعادة: بجوار محافظة مصر، (١٣٩٤هـ/١٩٧٤م).
- درء تعارض العقل والنقل. تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية. تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم، ط ٢، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، (١٤١١هـ/١٩٩١م).
- دستور العلماء أو جامع العلوم في اصطلاحات الفنون. القاضي عبد رب النبي بن عبد رب الرسول الأحمـد نكري، عرب عباراته الفارسية، حسن هاني فحص. ط ١، دار الكتب العلمية: لبنان، بيروت، (١٤٢١هـ/٢٠٠٠م).
- روائع التفسير (الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي). زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السلامي، البغدادي. جمع وترتيب: أبي معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، ط ١، دار العاصمة: المملكة العربية السعودية، (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).
- روضة المحبين ونزهة المشتاقين. محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية: بيروت، لبنان، (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، (١/٤٧٧).
- سبل السلام. محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني، الكحلاني ثم الصنعاني. دار الحديث: (٢/٦٧٢)، شرح الأربعين النووية: محمد بن صالح بن محمد العثيمين، دار الثريا للنشر.
- سنن ابن ماجه. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية: فيصل عيسى البابي الحلبي.
- سنن أبي داود. أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني. المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية: صيدا، بيروت.
- سنن الترمذي. تأليف محمد بن عيسى بن سؤرة الترمذي. تحقيق أحمد محمد شاكر، (ج ١-٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (ج ٣)، وإبراهيم عطوة عوض (ج ٤-٥)، ط ٢، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي: (١٣٩٥هـ/١٩٧٥م).

- شرح الأربعين النبوية في الأحاديث الصحيحة النبوية. تأليف تقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري المعروف بابن دقيق العيد. ط ٦، مؤسسة الريان: (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).
- شرح السنة. تأليف محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي. تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد زهير الشاويش، ط ٢، المكتب الإسلامي: دمشق بيروت، (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).
- شرح رياض الصالحين. محمد بن صالح بن محمد العثيمين. دار الوطن للنشر: الرياض، (١٤٢٦هـ).
- شَرْحُ صَحِيحِ مُسْلِمٍ لِلْقَاضِي عِيَّاضِ الْمَسْمُوعِ إِكْمَالُ الْمُعَلِّمِ بِقَوَائِدِ مُسْلِمٍ. عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي. المحقق: الدكتور يحيى إسماعيل، ط ١، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع: مصر، (١٩٩٨هـ/١٤١٩م).
- الصارم المسلول على شاتم الرسول. تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني. المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد، الحرس الوطني السعودي: المملكة العربية السعودية.
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري. أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتاني الحنفی بدر الدين العيني. دار إحياء التراث العربي: بيروت.
- فتح الباري. ابن حجر العسقلاني. تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز ومحب الدين الخطيب، مع تنظيم الأبواب والأحاديث وذكر أطرافها بواسطة محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر: (مصور عن الطبعة السلفية).
- فتح المنعم شرح صحيح مسلم. الأستاذ الدكتور موسى شاهين لاشين. ط ١، دار الشروق، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).
- الفوائد. محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية. ط ٢، دار الكتب العلمية: بيروت- (١٣٩٣هـ/١٩٧٣م).
- فيض القدير. عبد الرؤوف المناوي. ط ١، المكتبة التجارية الكبرى: مصر، (١٣٥٦هـ).
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل. أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله. ط ٣، دار الكتاب العربي: بيروت، (١٤٠٧هـ).
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل. أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله. ط ٣، دار الكتاب العربي: بيروت، (١٤٠٧هـ).
- مجموع الفتاوى. لابن تيمية. المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم. مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف: المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، (١٤١٦هـ/١٩٩٥م).